﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان حال الظّالمين يوم القيامة

لمّا كانَ دعاءُ إبراهيم ﷺ خاصًّا بالمؤمنين الذين آمنوا بربِّهم وأقاموا ما فرضه عليهم من الصّلوات وسائر المأمورات، جاء بعده بيان حال الظّالمين يوم القيامة وأنّهم ليسوا كالمؤمنين؛ بل هم في ذِلّة وهوان وإسراع إلى مصيرهم المحتوم الّذي لاينفكّون عنه بأيّ حال يوم الحساب جزاءَ ظُلمهم واستكبارهم. وإنكارهم ليوم الحِسابِ الموجب ذِكره لِكُلِّ سَعادَةٍ ونِسْيانه لِكُلِّ شَقاوَةٍ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ ما يَتَّفِقُ فِيهِ رُجوعًا إلى ما مَضى مِن أحْوالِ يَوْمِ القِيامَةِ عَلى أحْسَنِ وجْهٍ[1].

ثُمَّ إنَّه لمّا جاء في الآية السّابقة قولُه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: 42] بَيّنَ في هذه الآية حالهم في ذلك اليوم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُهْطِعِينَ﴾: أصلُ (هطع): يَدُلُّ على إقْبالٍ على الشَّيْءِ وانْقِيادٍ[2]، يُقالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ: إذا أقبل ببَصَره على الشَّيء لا يُقلِعُ عنه، يهطع هطوعًا[3] ولا يكون ذَلِك إلّا مَعَ خَوفٍ[4]، والإهْطاعُ: الإسْراعُ في العَدْو، وأهْطَعَ البَعِيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنْقادًا، وأهْطَعَ

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/433.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(3) الجوهري، الصحاح: (هطع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هطع).

أيضًا: أسْرَعَ[1]، وعليه فالمُراد بالإهْطاعِ في الآية: إسْراعُ المَشْيِ مَعَ مَدِّ العُنُقِ كالمُتَخَتِّلِ، وهي هَيْئَةُ الخائِفِ[2].

2) ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أصلُ (قنع): يَدُلُّ على الإقْبالِ على الشَّيْءِ، ومنه الإقْناعُ: الإقْبالُ بالوَجْهِ على الشَّيْءِ، يُقالُ: أقْنَعَ لَهُ يُقْنِعُ إقْناعًا، أيْ أقْبَلَ عَلَيْهِ بوَجْهِهِ[3]، وَمنها سُمِّيَتْ القَناعَة؛ لِأنَّ صاحبها يُقْبِلُ علَى الشَّيْءِ الَّذِي لَهُ راضِيًا[4]، والإقناع أيضًا: رفعُ الرَّأْس والنَّظرُ في ذُلّ وخُشوع، يُقال: أقنعَ رأسَه، إذا رفعه، وَقالَ القتيبيّ: المُقْنِع رأسَه: الَّذِي رفَعَه وَأقْبل بطَرْفه إلَى ما بَين يَدَيْهِ[5]، والقانِعُ: المُتَّصِفُ بِالقُنوعِ، وهوَ التَّذَلُّلُ، يُقالُ: قَنَعَ – مِنْ بابِ سَألَ – يَقْنَعُ قُنوعًا: إذا سألَ بِتَذَلُّلٍ، وَسُمِّيَ قانِعًا لِإقْبالِهِ على مَنْ يَسْألُهُ[6]، وبناء على ما سبق فإقْناعُ الرَّأْسِ في الآية: طَأْطَأتُهُ مِنَ الذُّلِّ، وَهوَ مُشْتَقٌّ مِنْ قَنَعَ – مِنْ بابِ مَنَعَ – إذا تَذَلَّلَ[7].

3) ﴿طَرْفُهُمْ﴾: أصلُ (طرف): يَدُلُّ على حَرَكَةٍ في بَعْضِ الأعْضاءِ فالطَّرْفُ، وَهوَ تَحْريكُ الْجُفونِ في النَّظَرِ[8]، وطَرَفَ يَطْرِفُ طَرْفاً: لَحَظَ، وَقِيلَ: حَرَّكَ شُفْرَه ونَظَرَ، يُقالُ: شَخَصَ بصرُه فَما يَطْرِفُ[9]، والطَّرْفُ أيضًا: اسْمٌ جامِعٌ لِلْبَصَرِ، لا يُثَنَّى وَلا يُجمع؛ لأنَّه في الأصل مَصْدَرٌ فَيَكونُ واحِدًا وَيَكونُ جَماعَةً[10]. والطَّرْفُ كذلك: إصابَتُك عَيناً بِثَوْبٍ أو غَيْرِهِ، يُقالُ: طُرِفَتْ عينُه وأصابَتْها طُرْفَةٌ وطَرَفَها الحزنُ بالبُكاءِ، والاسْمُ الطُّرْفَةُ، وَعَيْنٌ طَرِيفٌ: مَطْروفة[11]. والمُرادُ بالطَّرْفِ في الآية: تَحَرُّكُ جَفْنِ العَيْنِ[12].

4) ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾: أصلُ (فأد): أصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على حُمَّى وَشِدَّةِ حَرارَةٍ، مِنْ ذلكَ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/246.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنع).
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قنع).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (قنع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنع)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/265.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طرف).
(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(10) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (طرف).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/247.

فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ. وهذا فَئِيدٌ، أي: مَشْوِيٌّ. والمِفْأَدُ: السَّفودُ، والمُفْتَأَدُ: المَوْضِعُ يُشْوَى فِيهِ[1]، والتَّفَؤُّدُ: التَّوَقُّد، والفُؤادُ: القلبُ؛ لِتَفَؤُّدِه وتوقُّدِه، مُذَكَّرٌ لا غَيْرُ، وَقِيلَ: وسَطُه، وَقِيلَ: الفُؤادُ غِشاءُ القلبِ، والقلبُ حَبَّتُهُ وسَوَيْداؤُه، والفُؤادُ أيضًا: العَقْلُ[2]، ورَجُلٌ مَفْؤُودٌ: جَبانٌ ضَعِيفُ الفُؤادِ، ورجل مَفْؤودٌ وفَئِيدٌ: لا فؤادَ لَهُ؛ وَلا فِعْل لَهُ[3]، والمَقصودُ بالأفئدة في الآيةِ: جَمْعُ فُؤادٍ، وهو القَلْبُ، والمُرادُ بِهِ هُنا العَقْلُ، وهو إطْلاقٌ شائِعٌ في اسْتِعْمالِ العَرَبِ[4].

5) ﴿هَوَآءٌ﴾: أصْل (هوي): يَدُلُّ على خُلُوٍّ وَسُقوطٍ، وأصْلُهُ الهَواءُ: الجَوُّ ما بين السَّماءِ والأرْضِ، وكلُّ فارِغٍ وأجْوَفَ وخالٍ فهو هَواءٌ، ومنه قَلْبٌ هَواءٌ، أي: فارِغٌ[5]، والهَواءُ والخَواءُ واحد، يُقال: هَوَى صَدْرُه، يَهْوِي، هَواءً: إذا خَلا، والهَواءُ: كُلُّ فُرْجَةٍ بين شَيْئَيْن كما بين أسْفَلِ البَيْتِ إلى أعلاه، وأسْفَلُ البِئْرِ إلى أعلاها[6]، ويأتي بِمعنى الجَبانِ؛ لِخلوِّه مِن الجُرْأةِ، فكأنَّه فارِغٌ[7]. والجمع: أهْوِيَةٌ[8]، والمُرادُ بالهواء في الآية: الخَلاءُ، أي أفئدتهم كالهَواءِ في الخُلُوِّ مِنَ الإدْراكِ لِشِدَّةِ الهَوْلِ[9].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يصف ربنا ﷻ حال الظّالمين يومَ يَخْرُجون مِن قبورهم مُسرعين لإجابة الدّاعي للحساب، رافعي رُؤوسِهم: لا تعودُ إليهم أبصارُهم، ولا يستطيعون السَّيطرةَ عليها، ولا يتمكَّنونَ من توجيهها حيث شاؤوا،

في موقف الحساب تنقلب فيه أحوال الظّالمين، ويغيب عنهم صوابهم، وتفلت منهم جوارحهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/99.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فأد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/241.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هوا، هوي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (هوا).
(7) الخليل، العين: (هوى).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هوي).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/247.

أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا، وقلوبُهم خاليةٌ ليس فيها شَيءٌ؛ ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ، رافعي رؤوسهم، لا يُبصرون شيئًا لكثرة الخوف والوَجَل مِن هَوْل ما يرون في ذاك الموقف العصيب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثار لفظ ﴿مُهْطِعِينَ﴾:

الإهطاع إسراعٌ في ذُلٍّ وتَرَقُّبٍ

هذه الآيةُ المبارَكة مِن الآيات الّتي كَشَفت عن أحوال الظّالمين يوم الجزاء والحساب وما يكونون عليه من هيئةٍ مُشفقةٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49] وتصوِّر حالهم إذا دُعوا إلى الحساب يوم القيامة نحو قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ﴾ [القمر: 7 - 8]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: 43] وأوثر لفظ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ دون غيره؛ لجَمْعِهِ بَيْنَ حالتي الإسراع والذُّلّ، أي أنَّهم مُسرعون إلى الحساب في ذُلٍّ وخوف وهلع كإسراعِ الخائف والأسير، مأخوذٌ من أهطع يُهطِع إهطاعًا إذا أسرع، ومثله قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: 8]، والمُهْطِعُ أيضًا هو الَّذي يَنْظُر في ذُلٍّ وخُشوعٍ.

إنَّ هؤلاء الظّالمين المتكبِّرين الَّذين كانوا يسيرون في الأرض مَرَحًا، ويملؤونها جورًا يسيرون في ذلك اليوم العظيم أذِلّاء مَذعورين نحو البَلاء مُجيبين لأوَّل داعٍ دون إعراض أو تلكُّؤٍ أو تردُّد؛ لأنَّهم لا يملكون الَّا الإذعانَ والإجابةَ.

(1) نُخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 261.

فالمُهْطِع يظهر مِن فَرْط تسرُّعِه وكأنَّ رَقَبَته قد طالتْ، وكأنَّ الجزاء بالعذاب يجذبه ليقرّبَه، فَيُدفَع في شدَّةٍ وجفوةٍ إلى العذاب، يقول الحقُّ سبحانه: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: 13]، وكأنَّ هناك مَنْ يدفعهم دَفْعًا إلى مصيرهم المُؤْلِم[1].

سرُّ استعمال الاسم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ بدلًا من الفعل:

ثبات الوَصْف ومُلازمته لهم

أوثر استعمال الاسم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ الَّذي وقع حالًا بدلًا من الفعل؛ للدَّلالة على ثبات هذا الوصف في حقِّهم، ومُلازمتِه لهم في ذلك اليومِ العظيم.

إيثار الوصف الفريد ﴿مُقْنِعِي﴾، ودلالته:

الكِناية عن شِدَّة الذُّل والهَوان

الإقناع: رَفْعُ الرأسِ وإدامةُ النَّظر من غيرِ التفاتٍ إلى غيرِه، ومنه قولُ الشَّمّاخ يَصِفُ إبلًا تَرْعى أعالي الشَّجر فترفع رؤوسَها:

يُباكِرْن العِضاهَ بمُقْنَعاتٍ *** نواجِذُهُنَّ كالحَدأ الوَقيع[2].

يَعْني: برُءوسٍ مَرْفوعاتٍ إلَيْها لِتَتَناوَلَهُنَّ[3]، فقول الله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حالٌ ثالثة تكشف عن هيئة الظّالمين يوم القيامة، وإقناعُ الرَّأس: رَفْعه.

ومعنى الجملة هُنا: رافعوا رؤوسِهم ينظرون في ذُلٍّ وصَغار، والجملةُ كناية عن صِفةٍ هي شِدَّة الذُّل والهَوان والصَّغار، قال البقاعيُّ: "﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أيْ رافِعِيها وناصِبِيها ناظِرِينَ في ذُلٍّ وخُشوعٍ إلى جِهَةٍ واحِدَةٍ، وهي جِهَةُ الدّاعِي، لا يَلْتَفِتونَ يَمِينًا ولا شَمالًا، وهَذا كِنايَةٌ عَنْ أشَدِّ الذُّلِّ والصَّغار"[4].

وقيل: إنَّ الكلمة (مُقنع) مِن الأضداد، فيكونُ بمعنى:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7597.
(2) البيت من بحر الوافر، وهو للشماخ بن ضرار. ينظر: الشّمّاخ، ديوان الشّمّاخ، ص: 56.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/159.
(4) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/434.

طَأْطَأها ونَكَّسها فهو من الأضداد ذِلَّة وخضوعا[1]؛ والآيةُ الكريمة تحتمل ذلك.

بلاغة الإطناب في وصف أحوال الظّالمين:

إدخال الرَّوْعِ في قَلْبِ السّامِعِ

أطنبَ النَّظم الكريم في وصف أحوال الظّالمين بذكر إهطاعهم وإقناع رؤوسهم يوم القيامة لإدْخال الرَّوْعِ والمهابة في قَلْبِ السّامِعِ.

عِلَّة فصل جملةِ ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾:

احتمال الجملة للبدليَّة المانعة من العطف بالواو

هذه جُملة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ حاليَّةٌ ثالثة كاشِفة وواصِفة لحال الظّالمين في الحَشْر، والجُملة تحتمل أكثرَ من وَجْه إعرابيٍّ، فهي إمّا حاليَّةٌ، أو بَدَل من ﴿مُقْنِعِي﴾ أو استئنافٌ، ومعنى الجملة: "لا يَزولُ ما اعْتَراهم من شُخوصِ الأبْصارِ، وتَأْخِيرُهُ عَمَّنْ هو من تَتِمَّتِه منَ الإهْطاعِ، والإقْناعِ مَعَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الشُّخوصِ المَذْكورِ منَ المُناسَبَةِ لِتَرْبِيَةِ هَذا المَعْنى"[2].

دلالة الكناية:

شخوص أبصار الظّالمين لهول المَنْظَرِ

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ هذه الحالُ الرّابعة الَّتي تَصِف الظّالمين في أرض المَحْشَر؛ والطَّرْف: الجِفْن، يُقال: ما طَبَق طَرْفُه: أي: جِفْنه على الآخر، ويُطْلَق أيضًا على العَيْن، قال عنترة:

وأغُضُّ طَرْفي ما بَدَت لي جارتي *** حتَّى يواري جارتي مَأْواها[3]

والآيةُ فيها تصريحٌ بشُخوص أبصار الظّالمين، حيث تَبْقى مفتوحةً لا تَطْرُف - كالمُحْتَضَر - لِما أصابها مِن الهَوْل، فهؤلاء الظّالمون لا يستطيعون تحريك جُفونهم، وهذا كِنايةٌ عن بقاء العين مفتوحةً على حالها لِشِدَّة هَوْل ما يُعاينونه، أو أنَّ أبصارَهم قد استغرقتْها الأهوالُ الّتي تراها فهي فَزِعَة هَلِعَة، قد سُمِّرَت أعينهم

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون7/121، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.
(3) عنترة بن شدّاد، ديوانه، ص: 154.

فيما ترى مِن عذاب ذلك الهَوْل الأعظم فلا ترْجِع إليهم، ولا تعود تحت سيطرتِهم فَتَرى ما يَجب أن تراه، وتمتنع عن رؤية ما تَرْغَب ألّا تراه، ولَم يَعُد عليها مِن تَحَكُّم وسُلْطان[1].

سِرُّ استعمال صيغة المضارع المنفيّ:

دوام شخوص أبصارهم واستمراره لتتابع الأهوال عليهم

عبَّر النَّظم الكريم بصيغة المضارع المنفيِّ في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ﴾؛ للإشارة إلى استمرار تلك الحالة لَهُم؛ حيث تبقى أعينُهم شاخصة، أي: "لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ تَحْرِيكُ أَجْفانِهِمْ، حَسْبَما كانَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ كُلَّ لَحْظَةٍ؛ بَلْ تَبْقى أَعْيُنُهم مَفْتوحَةً لا تَطْرِفُ، أَوْ لا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَجْفانُهُمُ الَّتِي هي آلَةُ الطَّرْفِ"[2].

غَرَض تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

عدم سيطرة الظّالمين على عيونهم

الغرضُ مِن تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ هو بيان عَدم سيطرتِهم على عيونهم الَّتي سُمِّرَت مِن هَوْل ما تُشاهِده، وعَدَم تحَكُّمهم فيها، حيث استولت عليها تلك المَرائي المُفْزِعة ومَلَكَتْها، ولم يَعُد لَهُم عليها مِن سُلطان فيستطيعون تحويلها، أو إغماض جفونها، هذا المعنى ناسبه تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل، ولو قيل: لا يرتَدُّ طرفُهم إليهم لضاع الغرضُ المذكور؛ حيث سيُصْبِح الغرضُ بيانَ شخوص أبصارهم أوَّلًا، وعَدَمَ ارتدادها إلَيْهم ثانيةً، لكنَّ المرادَ العكس[3].

نكتة إفراد ﴿طَرْفُهُمْ﴾، والعُدول عن الجمع:

تشابه هيئة أعْيُنِ أولئك الظّالمين يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿طَرْفُهُمْ﴾، عدول عن الإفراد إلى الجمع؛ لِنُكْتَةٍ هي تشابُه هيئة أعْيُنِ هؤلاء الظّالمين في الطَّرفِ والسُّكونِ، فصارت كَطَرْف واحدٍ، وعلى هيئةٍ واحدة؛ لذا كان مِن المناسب إيثارُ المفرد على الجَمْع.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4050.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/246.
(3) عادل الرويني، تأمُّلات في سورة إبراهيم، ص: 226.

العلاقة بين: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، و﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾:

قَوْلُهُ سبحانه: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ والْمُرادُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ دَوامُ ذَلِكَ الشُّخوصِ، وأما قوله تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: 42] لا يدل على كَوْنَ هَذا الشُّخوصِ مُستمرًا بهم دائمًا، فقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يُفِيدُ دَوامَ هَذا الشُّخوصِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى دَوامِ تِلْكَ الْحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ فِي قُلوبِهِمْ[1].

شخوص الأبصار دليل على شدَّة الدَّهشة والحَيْرَة ونفي ارتدادها دليل على دوام ذلك الشُّخوص.

سِرُّ العطف بالواو بذكر حال الأفئدة:

في قوله تعالى ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: الواو حاليَّة، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: هواء مبتدأ وخبر، والجملة حال رابعةٌ، والمعنى أنَّ شخوصَ أبصارهم مُستمرٌّ، وهذا حالهُم الظّاهر، فلا تتحرَّك أجفان عيونِهم؛ بل تبقى مفتوحةً بدون حَراك لهول ما يُشاهدونه في هذا اليوم العصيب، وأمّا حالُهم الباطن فقلوبهم فارغة خالية عن الفهم، بحيث لا تعي شيئًا من شدَّة الفزع والدَّهشة[2]، ويجوز أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة مستأنَفة[3]، فالمعنى: بعدَ ما وصف حالَهم الظاهرَ شرع في الإخبار عن باطنهم الخائفِ الفَزِع.

وصف الحال الباطن بعد وصف الحال الظاهر

إيثار استعمال لفظ الفؤاد دونَ القلب:

قوله جلَّ شانه: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ الفُؤاد: هو العُضْوُ الَّذي مِن شَأْنِه أنْ يُحَمَّى بِالغَضَبِ، والتَّفَؤُّدُ: التَّحَرُّقُ والتَّوَقُّدُ، وهو اسم من أسماء الْقَلْبِ جَمْعُهُ أَفْئِدَةٌ[4]. ويُسْتَنْبَط مِنْ استخذام هذا اللَّفظ أنَّ الفؤاد هو مَوْطِن المشاعر والأحاسيس والوعي والإدراك؛ لذا أوثر استعمالُ لفظِ الفؤاد دون القلب.

الفؤاد هو مَوْطِن المشاعر والأحاسيس والوعي والإدراك

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/108.
(2) طنطاويُّ، التّفسير الوسيط: 7/573.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/205.
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (فأد).

سِرُّ جمع ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾ وإفراد ﴿هَوَآءٌ﴾:

كَثْرةُ تلك الأفئدة الـفـارغـة مِـن العقل والفَهْم والوعي

جُملة ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ إمّا حالِيَّة، وإمّا استئنافيَّة، وحيث إنَّ الغرض هو الإشارةُ إلى الكَثْرة جُمِعت الأفئدة في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾؛ للإشارة إلى كثرة تلك الأفئدة الفارغة مِن العقل والفَهْم والوعي؛ لِفَرط حيرة أصحابها وذُعْرهم ووَلَهِهم؛ وكأنَّ أفئدتَهم الفارغةَ صارت تَتَكاثرُ، وتتخالَط في ذلك اليوم المَهيب.

وأُفْرِد لفظ ﴿هَوَآءٌ﴾؛ وهو خبرٌ لجمع ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾؛ لأنَّ معنى ﴿هَوَآءٌ﴾ هُنا فارغة، ولو لم يُقْصَد ذلك لقيل: (أهْوِية) ليُطابِق الخبرُ مبتدأه[1].

سِرُّ التَّشبيه البليغ للقلوب بالهواء:

تـصـويـر شـدَّة اضطرابِ الأفئدة وفراغها

الهواء: هو الخالي من الأجسامِ ويُعبَّرُ به عن الجُبْنِ، يقال: جوفُه هواء؛ أيْ: فارغ. قال زهيرٌ[2] يصف ناقته:

كأنَّ الرَّحلَ مِنْها فوقَ صَعْل *** مِنَ الظِّلمانِ جُؤجؤُهُ هَواءُ[3].

والمقصود في الآية: أنَّ قلوب الكُفّار خالية يوم القيامة عن جمع الخواطر، والأفكار لِعِظَم ما نالهم من الحيرة لِما تحقَّقوهُ من العذاب، وخالية من كُلِّ سرور لكثرة ما هم فيه من الهمِّ والحُزنِ[4].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ حالٌ رابعة، والمعنى: أنَّ أفئدتَهم قد فَرَغت مِن أسباب السَّكينة والاطمئنان والأمن، وامتلأت بأسباب الهُموم والخوف، أو أنَّ أفئدتهم لا تُدْرك شيئًا ولا تَعِيهِ مِن شِدَّة

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 7/123.
(2) زهير بن أبي سُلمي، ديوانه، ص: 9.
(3) الصّعل: المُنجرد شعر الرّأس والصّغير الرّأس، والظِّلمان جمع ظليم وهو ذكرُ النّعام، والجؤجؤ الصدر وجؤجؤه: صدره؛ هواء: أي لا مُخّ فيه، وجعل صدره فارغا ليكون أسرع في السّير إلى طعامه. يُنظر: الجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هوى)، وابن سيده، المخصّص: 1/279، والجاحظ، الحيوان: 4/454، ودوريش: إعراب القرآن: 5/209.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/3243.

الخوف والفزع والهَلَع، والجُملة تشبيهٌ بليغ رائع لتلك الأفئدةِ الفَزِعة الطّائرة الخاوية مِن كُلِّ وَعْيٍ وإدراك.

وقد عَلَّقَ ابْنُ عَطِيَّة على هذا التَّشبيه بقوله: "﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ تَشْبِيهٌ مَحْضٌ، لِأَنَّها لَيْسَتْ بِهَواءٍ حَقِيقَةً، وجِهَةُ التَّشْبِيه يُحْتَمَل أنْ تَكونَ في فَراغِ الأفْئِدَةِ مِنَ الخَيْرِ والرَّجاءِ والطَمَعِ في الرَّحْمَةِ، فَهي مُنْخَرِقَةٌ مُشْبِهَةٌ الهَواءَ في تَفَرُّغِهِ مِنَ الأشْياءِ وانْخِراقِه، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ في اضْطِرابِ أفْئِدَتِهِمْ وجَيَشانِها في صُدورِهِمْ، وأنَّها تَجِيءُ وتَذْهَبُ وتَبْلُغُ - عَلى ما رُوِيَ - حَناجِرَهُمْ، فَهي في ذَلِكَ كالهَواءِ الَّذي هو أبَدًا في اضْطِرابٍ"[1]، وحُذف وجهُ الشَّبه وأداته؛ كي تذهب النَّفس في وجوه الشَّبه بين الأفئدة والهواء كُلَّ مذهب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مهطعين) و(مُسْرعين):

الإهطاع مُختصٌّ بالإسراع المصحوب بالخوف والتَّرَقُّب والحَذَر

يدلُّ أصل مادَّة هَطَع عَلَى إقْبالٍ عَلَى الشَّيْءِ وانْقِيادٍ[2]، وأهْطَع: أسْرَعَ مُقْبِلًا خائفًا، أو أقْبَلَ ببَصَره على الشَّيءِ لا يُقْلِعُ عنه[3]، والمُهْطِع الَّذي لا يرفع رأسه. والإهطاع: بمعنى الإسراع، ومنه ما أنْشَد ابن برِّي:

وبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كأنَّ زِمامَهُ *** في رأسِ جذْعٍ مِنْ أوالٍ مُشَذَّبِ[4]

ومثله أيضًا قول الشّاعر:

بِمُسْتَهطِعٍ رَسْلٍ كأنَّ جَدِيلَهُ *** بقَيْدومِ رَعْنٍ مِنْ صَوامٍ مُمَنَّعُ[5]

أمّا الإسراع فهو المُبادرة والتّعجيل، تقولُ: أسرع يُسرِعُ إسراعًا

(1) ابن عطيّة الأندلُسيُّ، المُحرّر الوجيز، ص: 1060.
(2) ابن فارس مقاييس اللُّغة: (هطع).
(3) الفيروزابادي، القاموس المُحيط: (هطع).
(4) البيت من الكامل، وهو لابن برّي، الثّعلبيُّ، الكشف والبيان: 5/324.
(5) البيت من الطّويل، وهو بلا نسبة في كتب الأدب والمعاجم: يُنظر: الزّمخشري، أساس البلاغة: 2/376، وابن منظور، لسان العرب، والأزهري، وتهذيب اللُّغة وتاج العروس: (صوم)، (قدم).

فهو مُسرِعٌ وسرِيعٌ أي: بادر وعجّل، والاسمُ: السُّرعةُ، وضِدُّ الإسراع: الإبطاءُ والتّأخِيرُ، ويُستعملُ فِي الأجسامِ والأفعالِ، والمُسارعةُ: المُسابقةُ، يُقالُ: سارعتُ فُلانًا أي: سابقتُهُ ونافستُهُ، وسرعانُ النّاسِ: أوائِلُهُمُ الّذين يسبِقون إلى الأمرِ، ومِن معاني الإسراعِ أيضًا: الجِدُّ والإقدامُ[1].

والخُلاصة: أنَّ كِلا اللَّفظين يشترك في الدِّلالة على السُرعة، لكنَّ الإهطاعَ يختصّ بالإسراع المصحوبِ بالخوف والتَّرَقُّب والحَذَر.

القِناع والغِطاء:

القِناع في اللُّغة يَدُلُّ عَلَى الْإِقْبالِ عَلَى الشَّيء، وقَنِعَ بِنَفْسِهِ قَنَعًا وقَناعةً: رَضِيَ. وأقْنَعَ رأسَه: رفعه، والقِناعُ والمِقْنَعةُ: ما تتَقَنَّعُ بِهِ المرأةُ مِنْ ثَوْبٍ تُغَطِّي رأْسَها ومحاسِنَها، وألقى عَنْ وجْهه قِناعَ الحياءِ، عَلَى الْمَثَلِ، وقَنَّعه الشَّيبُ خِمارَه إذا عَلاهُ الشَّيبُ، وَرُبَّما سَمَّوُا الشَّيْبَ قِناعًا لِكَوْنِهِ موضعَ القِناعِ مِنَ الرأْسِ[2].

الغطاء أعمُّ وأشمل من القناع

أمّا الغِطاء فهو كل ما يُجْعَل فَوْق الشَّيء يَحْجُبه ويَسْتُره كالغِشاء، ويُقال: غَطَّيْتُ الشَّيْءَ وَغَطَّيْتُهُ، والْغِطاءُ: ما تُغَطِّي بِهِ؛ وَغَطا اللَّيْلُ يَغْطو، إذا غَشَّى بِظَلامِهِ[3].

الفؤاد والقلب:

يَدُلُّ أصل مادَّة الفؤاد على حُمَّى وَشِدَّةِ حَرارَةٍ، ومِن ذَلِك: فَأَدْتُ اللَّحْمَ إذا شَوَيْتُهُ، والْفُؤادُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِحَرارَتِهِ[4].

الفؤاد هو غِشاء القَلْب، والقلب أخصُّ مِن الفؤاد

أمّا القلب فيَدُلُّ أصل مادَّته عَلَى شيئين: الأوَّل: خالِص شَيْءٍ وَشَرِيفه، والْآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فالْأَوَّلُ الْقَلْبُ:

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (سرع).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قنِع).
(3) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (غطِو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).

قَلْبُ الْإِنْسانِ وَغَيْرِه، سُمِّيَ لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فِيهِ وَأَرْفَعُه، وَخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفُهُ قَلْبُه، وسُمِّي القَلْبُ قَلْبًا أَيضًا لِتَقَلُّبه وتَحَوُّلِه[1].

وفي القرآن الكريم وَرَد اسم القلب بمعنى الأداةِ الدّاخليَّة الَّتي وظيفتُها التَّعَقُّل، ومركزُه الصَّدْر، ويُطْلَق على المعاني الَّتي تَخُصُّ العِلْم والفَهْم والشَّجاعة، وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي عِلْم وفَهْم.

ولا تكاد المعاجمُ اللُّغوية تُفَرِّق بين الفؤاد والقلب، لكن وَرَدَ في القرآن الكريم ما يُؤَكِّد على وجود فَرْقٍ بينهما وهو قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: 10]، ومِمّا يُلْحَظ أيضًا في استعمال البيان القرآنيِّ للكلمتيْن أنَّ القَلْب يُذْكَر قَبْل السَّمْع والبَصَر دائمًا، أمّا الفؤاد فيُذْكَرُ بَعْد السَّمْع والبَصَر دائمًا، ومن شواهد هذا قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: 7]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: 36].

"قال بعضُ العلماء: إنَّ القلب هو الفؤاد، وبعضُهم قال: إنَّ الفؤاد ليس هو القلب، وإنَّما هو غشاء القلب؛ لأنَّ العربيَّة دقيقة، تُسمِّي كلَّ جزء باسمه، وهذا الَّذي يترجَّح؛ أيْ: إنَّ الفؤاد هو الغشاء وما في داخله؛ لأنَّ أصل الفؤاد من التَّفَؤُّد، وهو التَّوقُّد والحُرقة، فكأنَّ القلب هو موضعُ هذه الأشياء، فلذلك استُعْمِل هكذا في هذا المكان"[2].

وأيضًا فإنَّ الفؤاد ليس محَلُّهُ الصَّدْرَ فهو غير القلب بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46]، فالفؤاد هو غِشاء القَلْب، والقلب أخصُّ مِن الفؤاد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 127.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»